لا أصلح لشيء..

قصة

بقلم شريف الراس

حين افقت ، كانت الفكرة الاولى التي قفزت الى النور في وعيي هي انني تافه ولا اصلح لاي شيء . وقلت في نفسي (كم انا تافه !) ... فهززت رأسي موافقا ، ثم تثاءبت وتمطيت قليلا كالكلب المتململ تحت شمس الربيع ، وبعد ذلك شعرت تماما باني تافه حقا ، وايقنت ببداهة انني لا اصلح لشيء ، ولقد ارتحت كثيرا لهذا الشعور الهادىء اللذيذ ، فاشعلت سيكارة ، وارتديت ثيابي بسرعة ونزلت الى المقهى .

ورغم انني كنت امشي على الرصيف ، فقد شاء سائق سيارة الرش ان يغمرني بالماء ، ولم اشعر بأي حرج من ذلك ، اذ كنت مشغولا بالتطلع اليه ، كان وراء مقوده والاته يشعر بأن سيارة الرش الضخمة لا تساوي شيئا بدونه ، وكان في عضلات وجهه وعنقه ما يدل على انه ينظر الى الناس من نافذة عالية . يبدو انه قال لنفسه (وهذا مخلوق اخر لا يصلح لاي عمل) ومن ثم فقد كان منسجما مع الواجب الذي كلفته به البلدية (يجب تنظيف الشوارع من كل الوحول والاوساخ) ... كان وراء مقوده جبارا حقا . وانا اعرف مثل هذا الشعور بالجبروت ، فقد جربته اسبوعا كاملا ...

البارحة نزلت من الريف ، او بالادق ، من تخوم الصحراء الشرقية ... علمت صدفة ان هناك تراكتورا لابن عمتي الحجي ، فتحسست جيبي فورا . واذ وجدت انني املك ما يزيد عن آجار الطريق ربع ليرة ، قررت ان اعمل سائقا للتراكتور . وسافرت . وربما كان من اكثر الامور فائدة للمرء ان يختلط بالريفيين في بيوتهم ، في ارضهم ، لا في المدينة حين ينزلون اليها فيضطرون لان يغيروا شيئا ما من نفوسهم فقد تبين لي هناك ، ان كل ما كتبته في احدى الصحف عن قضايا الفلاحين كان وهما ، وان الحقيقة لا زالت في الريف ذاته ، بين البيوت الطينية وخطوط الفلاحة . وحتى خطوط الفلاحة اصبحت في عيني ذات معنى اخر منذ ان ركبت وراء سائق التراكتور ، لأمرة الاولى ، احاول ان اتعلم . كان يقول لي (سوف تتعلم سريعا . وحتى الاغبياء تعلموا قيادة التراكتور بسرعة مدهشة . وعلى كل حال فنحن الثلاثة لا نكفي . ومنذ ان هرب يوسف ونحن نطلب من الحجي ان يضيف الينا سائقا اخر . وها انت ذا قد جئت .. سوف تتعلم بسرعة كما اقول . هل تعرف كيف تقود سيارة ؟)

اجبته : (ولا دراجة) وبدأت اشعر بالضجر من ضجيج هذه الالة الضخمة التي رمتنا على ظهرها كالذباب الدبق ، والتي ، لهولها ، تشق الارض غير عابئة بشيء .

قال وهو ينظر الي (ولا دراجة ؟ لا تعرف كيف تقود دراجة) ثم راح يضحك من كل نفسه ، ويداه تشدان طرفي المقود ، وكأنه يقود نعجة (ماذا كنت تعمل اذن في كل هذه الايام)؟ ووقعت في الفخ. وشعرت بأن العلم سيهان اذا اخبرته باني (كنت اعمل) طالبا جامعيا متفوقا في الفلسفة (ام العلوم) . ولكن الاهانة الحقيقية هي ان اسرد هذه الفضيحة باعلى صوتي ، كي يسمعني ... ان تبادل الاحاديث فوق الجرارات الضخمة يحتاج ايضا الى رئتين قويتين . ومع ذلك اخبرته بكل شيء ، (بنجاحي) والجريدة التي عملت بها ستة اشهر ، والخطاط الدمشقي الذي عملت عنده خلال شهر المعرض فربح خمسة وستين الفا من الكتابة للاجنحة الدولية ، كنت حصتي منها خمسين ليرة لا غير (او يكفي هذا ثمنا للفلافل ؟؟) .

قال : (لا . ولكنك هنا ستاكل وتشرب وتدخن على حساب الحجي؟.. وحين ينتهي الشهر تقبض مائة ليرة ، سوف تتعلم قيادة التراكتور بسرعة) ثم راح يعلمني اسماء الاشياء ودور كل منها وكيف يجب استعمالها على الوجه الصحيح (وعلى كل حال اذا حصل معك اي عطل فارجع الينا) اذن فلا بد من الرجوع الى المصدر الاعلى !

ولكنني اغمضت العين ، هذه المرة ايضا . لقد تجاوزت السابعة والعشرين وحملت (اعلى الشهادات العلمية)ومع ذلك لم اشعر بحريتي. ما زلت مكبلا بالحاجة الى الاخرين . وبقيت معه ، فوق آلة التعذيب الرهيبة ست ساعات ، اتيح لي بعدها ان استلم زمام القيادة ، وكم شعرت بالعزة اللامتناهية حين توهمت بانني اصبحت جبارا الى هذا الحد ، انني اقود مائة حصان حرون في يد واحدة . انني اشق الارض . وكنت اذ اراقب الشفرات الاربع تقلب التربة الحمراء خلفي ، اشعر بطوفان ترابي يبتلع العقم ويفتح نوافذ الهواء الطلق بين عناصر الخصب والخير . كم ستكون الزراعة هنا خصيبة وافرة الانتاج ، سوف يمر الفارس بين السنابل الذهبية فلا يرى منه الا كوفيته الحمراء . ليت ذلك يحدث غدا ... كان رفيقي يقول (هاانتذا اصبحت سائقا ماهرا ، الم اقل لك ذلك ؟) فسألته باعلى صوتي (هل تعودون بعد شهور ، الى الارض التي فلحتموها لتشاهدوا ثمرات اتعابكم ؟ وما هو شعوركم آنذاك ؟) ولقد بدا لي بعد حين انني كنت مخطئا اذ لم اخل من الفضولية الصحفية بعد ان اصبحت عاملا . (اننا لا نهتم بمثل هذه الامور . نفلح نمشي .. احذر احذر ، لقد كاد التراكتور ان ينحدر في الخندق .. اياك ان تهتم بأي شيء خارج نطاق عملك، انت منذ الان قطعة من هذا التراكتور يا اســـتاذ) .

وفي اليوم الثاني كان الجميع ينادونني (استاذ) على طريقة (اكرموا عزيز قوم ذل). وكنت اجد حرجا شديدا في ذلك . ما يشبه الاهانة.وكم كنت احسد رفاقي الذين يناديهم الفلاحون دون القاب : خالد وفهد وعبد القادر .

هكذا مر الاسبوع . كنت اعمل ست ساعات واعود بعدها لانكب على وجهي كالاموات . كنت اشعر بأن كل فقرة من ظهري قد ابتعدت عن اختها ، اما المفاصل فكانت تصرخ بألم عنيف . ولقد حاولت ان اخفي ذلك عن رفاقي ، ولكن دلالات الاعياء على وجهي ، وذبول اجفاني ، وتهدل يدي ، وتراخي مشيتي ، جعلتهم يتخذونني مجالا جديدا لدوران حديث طريف ، حتى ان عبد القادر قال لي حين عجزت عن تجليس برميل المازوت (ابحث عن غلام تعلمه الفلسفة يا استاذ) ورغم ان عبد القادر هذا كان اقوانا عضلا ، ورغم انه كان يتطوع للقيام بالاعمال الصعبة (التي هي حصتي) فقد كنت اشعر نحوه ، منذ النظرة الاولى ، بمقت شديد ، اذ تبين لي انه (عبد القادر الثاني) . اما (عبد القادر الاول) فلا اشك في انهم قد حفظوا حكايته فيبا لكثرة ما رويتها لهم . كنا في اوقات الراحة نشرثر تحت الخيمة ساعات ... اخته جميلة ، وهو وسيم ، وانيق ، وعنده سيارة ، وظل رفيقنا في الجامعة اربع سنوات . كان يحضر الى الجامعة ايام الربيع فقط ، وايام الامتحانات . اقول لكم الحقيقة ، انه شاب ماهر جدا . كان ينجح على اكتافي كل سنة مقابل اطعامي شهرا كاملا ... كان الطعام فخما . وفي السنة الرابعة سألني (الا تريد ان تدفيء بطنك ؟) . فأجبته : (ان طعام شهر لا يكفي اذ ان علي ان اكتب لك الرسالة الجامعية) كنت اريد ان اكون بدوري ماهرا ايضا . قال : بسيطة ، ودعاني الى بيته . كانت اخته رائعة الجمال كما قلنا ولقد ظللت اتردد على قصرهم طالما ان الرسالة الجامعية التي سيقدمها السيد عبد القادر لم تنته من بين يدي بعد . تلك ايام من العمر مرت خلست ، كان فيها صديقة حلوة وسيارة ونزهات وطعام جيد وكل شيء . ثم انهار كل ذلك في نفس اللحظة التي دفعت فيها الرسالة اليه . وكم يؤسفني انها فازت بالدرجة الاولى ... آنذاك تحدثت الصحف كثيرا عن عبقرية السيد عبد القادرالذي كتب اطروحة (الانفلاق في اللاوجود) انتم لا تفهمون هذا الكلام طبعا ولكن السيد عبد القادر اصبح الان مفتشا في التعليم .

وفي كل مرة ، كان رفاقي المتمددون تحت الخيمة يعلقون على حديثي قائلين : (لا تزعل يا استاذ في هذه الدنيا لا يضيع شيء) . ثم نتابع التحديق في الخيمة او نشرب الشاي . وقد يقول واحد منهم (كل الدنيا هكذا) ثم يمسح يديه بطرف الفراش ، وكأن هذا يكفي لازالة ما عليها من الشحوم المعدنية ، ثم يشعل سيجارة ويتابع : (ليتني احمل شهادتك وعلي الف ليرة دينا) . ثم لا تنتهي الاحاديث . ندور الدنيا حول عمود الخيمة ـ الوسخة .

كنت استعين بالشعر احيانا . ولقد تبين لي فيما بعد ان الحديد اصلب من الشعر والشطحات الخيالية لم تعد التربة الطيبة تزغرد وهي تتقلب بين الشفرات القاسية .. كل ما في الامر ان السكة الفولاذية تشق بشفراتها الارض ، لان الحجي سيزرعها وسيحصدها وسيقول : (لقد فلحت كذا وحصدت كذا وربحت هذا المقدار) . ولم اعد افكر في لذة العودة الى هذه الارض حين يغطي زرعها راس الفارس بل اصبحت كل لذتي تلمع في لحظة انقضاء الساعات الستة . واحيانا كنت احاول ان اشغل نفسي بالتفكير ، واذ تقع عيني على بيوت القرية ، عند نهاية الحقل الكبير ، فقد كنت اندم على المجهودات التي بذلتها طوال شهور وانا اكتب عن قضايا الريف والفلاحين في احدى الصحف اليومية ، كان يجب ان اعرفهم قبل ان اكتب حرفا .. ثم احك ذقني وانا اقول : (ولكن ما فائدة ذلك ؟ ان الصحافة لا تطعم خبزا ان لم تعرف من اين تؤكل الكتف) . والواقع ان العاصمة كانت مترعة بالاكتاف ، ولكنها جميعا اكتاف متفسخة ، وحين وصفت حقيقة تفسخ (كتف كبير) وكشفت عن أنيابه قال ليرئيس التحرير : (ابحث عن جريدة اخرى) .

وكاد التراكتور ان ينزلق في الخندق .

ـ ولكن لم لا تشتغل معلما ؟..

هكذا كانوا يسألونني دائما . ولم يكن جوابي ليقنع احدا اذ ليس من المعقول ان يحرم انسان من معيشته لانه كتب بضع مقالات عما يجب ان يكون عليه التعليم في هذه البلاد . ولكن هذا ما حصل . ويبدو ان (كل الدنيا هكذا). لماذا كانت كل الدنيا هكذا ؟ ان الجواب في ام العلوم ، في بطون الكتب من ايام افلاطون الى ايام برغسون . تلك رحلة استغرقت معنا اربع سنوات . ولكن ...

وانزلق التراكتور في الخندق ، وعجزت عن معالجته، فتركته يعوي في الخندق وجررت ساقي وسط الحقول ، ونزلت الى المدينة دون ان امر على الخيمة (سامحهم الله بالاجرة والقميص الابيض ، لقد انكسر ظهري .)وحين وصلت المقهى كانت بقايا الانهاك لا تزال تسري في اوصالي فجلست بجانب طاولة رخامية اتحسس عروقها الباردة باصابعي . كانت ملساء صماء هادئة ، وكذلك دماغي ، وكان الناس يمرون امامي كانهم صور كرتونية مكسوة برموز معقده . لايمكن فهم شيء في هذه الدنيا . ومما زاد في تعقيد الامور ان الطنين كان لا يزال يحفر مسارب في رأسي.. وفجأة استيقظت ، تلك صدفة توقظ الميت ذاته : عبد القادر في مدينتنا المفلقة ؟ نعم ، عبد القادر الثاني باناقته ووسامته اقبل علي يصافحني بلهفة سينمائية ، حتى انه كان يعلك اللبان بسرعة مذهلة . (كيفك وكيف حالك يااستاذ .. اتذكر كل شيء ؟ ولكن لماذا انت خامل هكذا ؟ قلت في نفسي : يجب عليك ان تزور الاستاذ ما دمت قد جئت الى بلده في جولة تفتيشية . والواقع انها مناسبة طيبة جدا . كيف حالك ؟) لم يكن ليفسح لي اي مجال للرد على اسئلته . ولكنني اجبته : (انا كما ترى) كان من الضروري ان ارسم على وجهي ابتسامة مجاملة ففعلت ، ثم سألته : (اذن اصبحت الان مفتشا عاما في التعليم ؟) فقال : (وماذا افعل ، هكذا ارادوا . لقد فشلت معلما فجعلوني مديرا لاحدى الثانويات . وحين فشلت في الادارة ـ رفعوني الى الهيئة التفتيشية . وهناك رائحة ايفادي ببعثة الى اوربا) فقلت في نفسي : اذن لقد فشل في التفتيش ايضا . وتضاءلت سرعة فكه في علك اللبان . وكان يبتسم في كل عباراته كأنما يريدني ان اوافق على ان اسنانه بيضاء كالحليب . ولكن اسنان الفلاحين ايضا بيضاء كالحليب .

ثم سألني : وانت ماذا تفعل الان ؟ فأجبته :

ـ انني اقوم بوظيفة هامة جدا : اقيس الشوارع بالخطوة واعدد مقاعد المقاهي .

فابتسم ثم قال ، كان يجب ان لا تنقد نظام التعليم والمناهج . لوانك سكت لتوظفت . انت ذكي جدا ولكنك لا تعرف كيف تعيش مثل الناس.. على كل حال سأكتب اليك من باريس حتما .

ثم ودعني وهو يعلك لبانه بنهم شديد .

شريف الراس